



العدد الثالث / ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

دراسات إسلامية

مجلة علمية سنوية محكمة

بحث تطبيقي في أسباب النزول وما يتعلق بها

د. أنور أربا

دكتورة في الدراسات الإسلامية ومدير ومنسق الوكالة التركية العالمية للتعاون والتنمية لمنطقة

الشرق الأوسط وإفريقيا

يصدرها قسم الدراسات الإسلامية ، كلية الآداب ، جامعة الخرطوم - قسم الثقافة الإسلامية بإدارة مطلوبات جامعة

مستخلص البحث:

تعتبر علوم القرآن التي ألفت من أجل أن يفهم القرآن الكريم بطريقة صحيحة من أقل العلوم الإسلامية بحثاً بيد أنها من أكثر العلوم احتياجاً للبحث والتحليل. ولم يؤلف في الحقب القديمة بصورة جادة في هذا المجال غير كتابي البرهان في علوم القرآن للرزكشي ومعه كتاب الإتقان في علوم القرآن للإمام السيوطي الذي يعد تأليفه على غرار الأول وبصورة موسعة له. وأما في العصر الحديث وإن ألف في هذا المجال فما هو في الغالب إلا تكرار مزين لهذين الكتابين المذكورين.

ودراسة أسباب النزول موضوعٌ يحتاج إلى التحليل والبحث بل وإلى حل كثير من المسائل التي يحتويها بناؤه. فمن المعلوم أن نزول القرآن الكريم تحقق على شكلين ، الأول قسم نزل غير مرتبط بسبب من الأسباب أو حدث من الأحداث وإنما هو هداية للخلق ، وهذا كثير ظاهر أكثر القرآن منه وهو لم يردع حاجة إلى تأويل وتحليل. والثاني هو القسم الذي يرتبط ببعض الأسباب أو الأحداث ، فالأسباب التي نقصدها هي الأسباب التي يدخل فيها هذا القسم.

ونحن سوف نتناول هذا الموضوع الذي يعد من أهم موضوعات علوم القرآن ، وسنحاول أن نحلله بوجهة نظر جديدة. وسنحاول تحليل المسائل التي تتعلق بأسباب النزول سبباً سبباً واستخراج الأقوال والحقائق في هذا المجال.

Applied Research on the Reasons of Koran Revelations and Pertinent Questions

Abstract

The Koran sciences, which were written in order to rightly understand the Holly Book, are the least researched among Islamic studies, though they are the most in need of research and analysis. However, in early stages of Islamic thought, the only two serious writings in this area of study are the book of Alburhan fi Uluum Alkoran [the Proof in the Sciences of Koran] by El-Zarkashi, and Alitqan fi Uluum Alkoran [Perfection in the Sciences of Koran] by El-Siyoutti, which was written after the pattern of the former, but extensively. As for writings in modern times, they are mostly an embellished reproduction of the two aforementioned books.

The subject of revelations reasons, requires good analysis and research – let alone solving the numerous intrinsic questions of the subject. It is well-known that revelations of the Holly Koran were brought down in two ways: the first part of revelations was brought down without reference to any particular reason, or specific event. It was only guidance for creatures. This is conspicuous and represents much of the revelations of Koran and does not leave any room for interpretation, or analysis. The second part refers to certain reasons, or events. So, the term "reasons" is the term, which we mean here and which the latter part includes.

We will tackle this subject which is considered one of the most important subjects of Koran sciences and we will analyze it on basis of a new perspective. We will endeavour to analyze the problems pertinent to revelations reasons, one after the other, and expose opinions and facts relevant to this field of study.

مقدمة :

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد :

فقد تكفل الله عز وجل بحفظ كتابه الكريم فقال في محكم التنزيل ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] وقد قيض الله عز وجل لهذا الكتاب الكريم ثلثة من العلماء قديماً وحديثاً حرصوا على قراءته وتعلمه والعمل به واستخراج أسرارهِ وأحكامه فاهتم بعضهم بتفسيره وبيان معانيه وإعجازه وآخرون بقراءته. واهتم فريق بمباحث علومه التي منها موضوع بحثنا أسباب النزول.

وإن من حكمة الله تعالى أن أنزل القرآن مفرقاً منجماً وفق الحوادث والأسباب ووفق مصالح العباد وحاجاتهم تيسيراً عليهم وإرشاداً لهم وعلاجاً لأحوالهم وتدرجاً بهم نحو المنهج الرباني القويم. فكانت الآيات تنزل وفق الأحداث والأسباب. ومن المعلوم أن القرآن الكريم قسمان : قسم نزل من الله ابتداء غير مرتبط بسبب من الأسباب الخاصة وإنما هو لمحض هداية الخلق إلى الحق وهذا كثير ظاهر لا يحتاج إلى بحث ولا بيان وقسم نزل مرتبطاً بسبب من الأسباب الخاصة وهذا هو موضوع بحثنا. وقد أفردته جماعة من العلماء بالتأليف منهم الواحدي وابن حجر والسيوطي...

ويعد مبحث أسباب النزول من أهم المباحث في علوم القرآن فهو مبحث شائق وشائك. فهو شائق من حيث موضوعاته ومسائله التي تُقنع العقل وتثبت صدق النبي وإعجاز القرآن. وشائك من حيث وعورة هذه المسائل وما يترتب عليها من خلافات بين العلماء.

وهو موضوع خطير يحتاج إلى دراسة وبحث وإجالة فكر ونظر عميق في قضاياهِ ومسائله لتحريرها وحل ما يثار حولها من مشكلات وشبهات... وبيان الصواب فيها... لهذا آثرت البحث فيه لتحريّر محل النزاع في مسائله والوصول إلى وجه الصواب فيها بإذن الله تعالى. ملتزماً جانب الاختصار للقضايا المطروحة وملتزماً بالدقة والموضوعية ما استطعت إلى ذلك سبيلاً.

ولا بد لي أن أذكر بأن لأستاذي فضيلة الأستاذ الدكتور فضل حسن عباس فضلاً كبيراً عليّ في إعداد هذا البحث المتواضع. حيث استفدت كثيراً من توجيهاته العلمية القيمة من خلال محاضراته في علوم القرآن.

يشمل البحث المسائل التالية :

- معنى سبب النزول.
 - جهود القدماء والمعاصرين في الموضوع.
 - أهمية أسباب النزول.
 - فوائد معرفة أسباب النزول ومناقشتها.
 - كيفية الوصول إلى أسباب النزول.
 - التعبيرات عن سبب النزول.
 - تعدد السبب في الآية وكيفية العمل فيها.
 - تعدد النازل والسبب واحد.
 - الأسباب في القول بتعدد أسباب النزول.
 - تكرار النزول ومناقشته.
 - الأسباب التي دعت إلى القول بتكرار النزول.
 - أهم نتائج البحث.
- قبل الخوض إلى البحث لهذه المسائل لا بد من أن نعرض لمفهوم أسباب النزول لغة واصطلاحاً بإيجاز.

معنى سبب النزول :

المعنى اللغوي : هو تعبير يتكون من مضاف ومضاف إليه.

السبب : له معنيان :

الأول : الحبل الذي يُتصّل به إلى غيره وجمعه أسباب.^(١)

^(١) الفيروز آبادي ، محمد بن محمد يعقوب ، القاموس المحيط ، مؤسسة الرسالة ، ط ٢ ، ١٩٨٧ ، ص ١٢٣.

الثاني : القطع واشتق منه الشتم.^(١)

والأول هو الذي ورد في القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾ [الكهف : ٨٤]^(٢) أي من أسباب كل شيء .

النزول : هبوط الشيء ووقوعه.^(٣)

وعلى هذا فيكون المعنى اللغوي : ما يتوصل به إلى معرفة نزول القرآن الكريم .

المعنى الاصطلاحي : ” سبب النزول هو ما نزلت الآية أو الآيات متحدة عنه أو مبينة لحكمة أيام وقوعه ... والمعنى أنه حادثة وقعت زمن النبي ﷺ أو سؤال وجه إليه فنزلت الآية أو الآيات ببيان ما يتصل بتلك الحادثة أو بجواب هذا السؤال “.^(٤)

جهود القدامى والمعاشرين في أسباب النزول^(٥)

جهود القدامى :

- (١) أسباب نزول القرآن : الواحدي المتوفي سنة ٤٦٨ هـ .
- (٢) العجّاب في بيان الأسباب : ابن حجر العسقلاني . هو كتاب مخطوط ذكره طاش كبرى زادة في مفتاح السعادة ومصباح الزيادة [٣٤٩/٢] والبغدادى في هداية العارفين [ص ١٢٨] وتوجد منه نسخة بخزانة ابن يوسف العمومية بمراكش رقم : ٢٢٨ .
- (٣) إرشاد الرحمن لأسباب النزول ... عطية بن عطية . مخطوط .
- (٤) لباب النقول في أسباب النزول : جلال الدين السيوطي .

جهود المعاصرين :

- (١) الصحيح المسند من أسباب النزول : مقبل بن هادي الوادعي .
- (٢) أسباب نزول القرآن مصادرهما ومناهجها : د. حماد عبد الخالق حلوة .

(١) أحمد بن فارس ، معجم مقاييس اللغة ، دار الكتب العلمية ، إيران ، ص ٦٣/٣ .

(٢) المرجع نفسه ، ٤١٧/٥ .

(٣) المرجع نفسه ، ٤١٧/٥ .

(٤) محمد عبد العظيم الزرقاني ، مناهل العرفان في علوم القرآن ، دار الفكر ، ١٩٨٨ ، ١٠٦/١ .

(٥) عبد الرحيم فارس أبو علبة ، أسباب نزول القرآن ، رسالة ماجستير ، الجامعة الأردنية ، ١٩٧٩ ، ص ١٦ وما بعدها .

- (٣) أسباب النزول عن الصحابة والمفسرين : الشيخ عبد الفتاح القاضي .
- (٤) أسباب النزول القرآني : د. غازي عناية .
- (٥) جامع النقول في أسباب النزول : ابن خليفة عليوي .
- (٦) تحقيق أسباب النزول للواحددي : د. سيد صقر .
- (٧) أسباب نزول القرآن : عبد الرحيم فارس أبو غلبة [رسالة ماجستير بالجامعة الأردنية].
- (٨) دور أسباب النزول في فهم القرآن : د. أحمد نديم سرين سو [باللغة التركية].

أهمية أسباب النزول :

لقد اهتم العلماء بأسباب النزول وتناولوها في أصول التفسير وعلوم القرآن وأفردوها في مؤلف مستقل مثل الواحددي وغيره ممن ذكرنا ، فقد ذكروها في العلوم الواجب معرفتها قبل الخوض في التفسير .

قال الواحددي : ” الأسباب هي أوفى ما يجب الوقوف عليها وأولى ما تصرف العناية إليها لامتناع معرفة تفسير الآية وقصد سبيلها دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها “^(٧) .
وقال ابن تيمية : ” ومعرفة سبب النزول تعين على فهم الآية . فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب “^(٨) .

وقال الشاطبي : ” الجهل بأسباب التنزيل موقع في الشبه والإشكالات “^(٩) .
وقد جعله الزركشي^(١٠) من الأمور التي لا بد منها للمفسر وتبعه السيوطي في الإتيان^(١١) .

(٧) الواحددي ، علي بن أحمد ، أسباب النزول ، تحقيق أحمد صقر ، دار القبة ، جدة ، ط ٢ ، ١٩٨٤ م ، ص ٥ .

(٨) ابن تيمية ، أحمد بن عبد الحليم ، مقدمة في أصول التفسير ، دار القرآن الكريم ، بيروت ، ١٩٧١ ، ص ٤٧ .

(٩) الشاطبي ، إبراهيم بن موسى ، الموافقات في أصول الشريعة ، تحقيق محي الدين عبد الحميد ، مكتبة علي صبيح وأولاده ، القاهرة ، ١٩٦٩ ، ٣ / ٢٢٥ .

(١٠) الزركشي ، بدر الدين ، البرهان في علوم القرآن ، دار الفكر ، ط ١ ، ١٩٨٨ ، ١ / ٤٥ .

(١١) السيوطي ، الإتيان في علوم القرآن ، تحقيق مصطفى ديب البغا ، دار ابن كسير ، ط ١ ، ١٩٨٨ ، ٩٢ / ١ .

وقال الدكتور الذهبي في "التفسير والمفسرون": "ومعرفة أسباب النزول وما أحاط بالقرآن من ظروف وملابسات تعين على فهم كثير من الآيات القرآنية".^(١١)

وقال ابن عاشور: "إن من أسباب النزول ما ليس المفسر بغنى عن علمه لأنه فيها بيان مجمل أو إيضاح خفي وموجز ومنها ما يكون وحده تفسيراً".^(١٢)

فوائد معرفة أسباب النزول ومناقشة بعضها :

إن أسباب النزول - كما سبق في آراء العلماء - لها فوائد جمة ومكانة مميزة في التفسير. لقد اتفقت كلمة المؤلفين في علوم القرآن بالرد على القائل أنه لا طائل تحت هذا الفن لجريانه مجرى التاريخ فذكروا لها فوائد. فمنها ما يُقبل ومنها ما يحتاج إلى إعادة النظر.

ونذكر هذه الفوائد مع مناقشتها بقدر المستطاع :

(١) معرفة الحكمة الباعثة على التشريع : قد تظهر الحكمة من خلال الظروف التي نزلت فيها الآية.

لقد ذكر الزركشي^(١٣) والسيوطي^(١٤) والزرقاني^(١٥) وعبد الوهاب عبد المجيد غزلان^(١٦) هذه الفائدة ومثل لها غزلان بآيات المواريث والخمر وغيرها حيث قال : "إن السبب يبين الظروف التي شرع فيها هذا الحكم ويبيّن أنه حقق بالفعل مصلحة في ذلك الوقت كان الناس في حاجة إليها كآيات التي نزلت في المواريث على حوادث من ظلم أهل الجاهلية الذين كانوا لا يورثون البنات ولا الذكور الصغار".^(١٧)

(١١) الذهبي ، محمد حسين ، التفسير والمفسرون ، ط ٢ ، ١٩٧٦ ، ٥٨ / ١ .

(١٢) محمد ، طاهر بن عاشور ، التحرير والتنوير ، الدار التونسية للنشر ، ١٩٨٤ ، المقدمة الخامسة ، ٤١ / ١ .

(١٣) البرهان ، ٤٥ / ١ .

(١٤) الإتيقان ، ٩٢ / ١ .

(١٥) مناهل العرفان ، ١٠٩ / ١ .

(١٦) غزلان ، عبد الوهاب ، البيان في مباحث من علوم القرآن ، مطبعة دار التاليف ، ص ٩٤ .

(١٧) المرجع السابق ، ص ٩٤ .

ومما يلفت النظر في هذه الفائدة أن العلماء القدامى لم يمثلوا لهذه الفائدة واكتفوا بذكرها فقط. فكأنهم لم يجدوا مثالا مطابقا لها. أما المعاصرون فذكروا لها آيات الخمر والمواريث كما سبق.

والحق أن أسباب النزول ليست الطريق الوحيد لمعرفة الحكمة الباعثة على التشريع بل هناك طرق أخرى. لأن القرآن ما نزل منه شيء إلا لداع وحكمة ولو خلا عن ذلك لكان نزوله عبثاً. فإن هناك آيات ليس لها سبب خاص لنزولها ولكنها نزلت لحكمة وهي احتياج الخلق إلى ما ينظم حياتهم وهذا أمر بديهي يعلم بدون النص.

(٢) معرفة من نزلت فيه الآية على التعيين : حتى لا يشتبه بغيره فيتهم البريء ووبرأ المريب ولهذا ردت عائشة رضي الله عنها على مروان حين اتهم أخاها عبد الرحمن بأنه الذي نزلت فيه آية ﴿ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا ... ﴾ [الأحقاف : ١٧] وقالت : ” والله ما هو به ولو شئت أن أسميه لسميته “. (١٩)

(٣) أسباب النزول توصل إلى بيان إعجاز القرآن : إن معرفة سبب النزول تقطع دعوى أن القرآن ليس من عند الله وتبين إعجازه رغم نزوله بمناسبات وأوقات مختلفة. (٢٠)

(٤) أسباب النزول توضح المعنى : إن القرآن فيه آيات كثيرة لا يتبين المقصود منها إلا إذا علمت الأسباب التي نزلت عليها هذه الآيات ومثاله :

(أ) قال الله تعالى في سورة البقرة : ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَنَّمَّ وَجْهَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ١١٥] فالآية بظاهاها تدل على أن للإنسان أن يصلي إلى أية جهة شاء.

ولا يجب عليه أن يولي وجهه شطر المسجد الحرام لا في سفر ولا حضر. ولكن إذا علم أن هذه الآية نازلة في نافلة السفر خاصة أو فيمن صلى باجتهاده ثم بان له خطؤه تبين له أن الظاهر غير مراد إنما المراد التخفيف على خصوص المسافر في صلاة النافلة أو على المجتهد في القبلة إذا صلى وتبين له خطؤه. (٢١)

(١٩) الزركشي ، مناهل العرفان ، ١/ ١١٣. وانظر ، صحيح البخاري (ضمن فتح الباري) التفسير/ الأحقاف رقم : ٤٨٢٧.

(٢٠) عبد الرحيم فارس أبو عليه ، أسباب نزول القرآن ، ص ١١.

(٢١) الزرقاني ، مناهل العرفان ، ١/ ١٠٩-١١٠.

(ب) المثال الثاني ذكره السيوطي وتبعه الآخرون وهو : أنه قد أشكل على مروان بن الحكم معنى قوله تعالى : ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرُحُونَ بِمَا آتَوْا ... ﴾ [آل عمران : ١٨٨] وقال لئن كان كل امرئ فرح بما أوتي وأحب أن يحمد بما لا يفعل معذباً لنعذبن أجمعون حتى بين له ابن عباس أن الآية نزلت في أهل الكتاب حين سألهم النبي ﷺ عن شيء فكتموه إياه وأخبروه بغيره وأروه أنهم أخبروه بما سألهم عنه واستحمدوا بذلك إليه. (٣٣)

تنبيه : لقد رأى بعض العلماء أن سبب نزول هذه الآية يدل على تخصيصها بمن نزلت فيهم محتجين بكلام ابن عباس المذكور آنفاً.

وقال الشيخ غزلان : ” وقد فهم السيوطي والزرکشي وغيرهما أن ابن عباس أزال الإشكال الذي وقع فيه مروان بأن جعل اللفظ العام في الآية مراداً به خصوص من نزلت فيهم. فهو من العام الذي أريد به خاص... والظاهر أنها عامة في كل من فعل فعلهم وإن كان قول ابن عباس ظاهراً في تخصيص الآية بمن نزلت فيهم. لأن الآية نزلت في هؤلاء اليهود لارتكابهم هذا الكذب الشنيع وفرحهم به فلا تتناول من يفرح بما أتى من خير كما فهمه مروان وإنما تتناول من يفرح بالشر الذي يفعله كما وقع من اليهود “. (٣٤)

وخلاصة القول في هذه الآية إن الرواية تساعد على فهم الآية وعلى ما صدر من اليهود. وهي شاملة لكل من فعل ما فعله اليهود.

(٥) دفع توهم الحصر عما يفيد بظاهره الحصر : وقد مثلوا كلهم لهذه الفائدة بمثال واحد (٣٥) ، وهو قول الشافعي - كما رواه صاحب البرهان - في قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِيتَةً ... ﴾ [الأنعام : ١٤٥]. قال الشافعي ” ما معناه “ إن الكفار لما حرموا ما أحل الله وأحلوا ما حرم الله وكانوا

(٣٣) انظر ، الإتيان ، ٩٣/١. والحديث أخرجه البخاري في باب التفسير في سورة آل عمران. رقم : ٤٨٦٥.

(٣٤) غزلان ، البيان ، ١٠٠-١٠٢ بتصرف.

(٣٥) انظر ، البرهان ، ٤٦/١ ، الإتيان ، ٩٤/١ ، مناهل العرفان ، ١١٢/١.

على المضادة والمحاددة. جاءت الآية مناقضة لغرضهم فكأنه قال : لا حلال إلا ما حرمتوه ولا حرام إلا ما أحللتوه.

ووافق الشافعي إمام الحرمين بقوله : ” وهذا في غاية الحسن ولولا سبق الشافعي إلى ذلك لما كنا نستجيز مخالفة مالك في حصر المحرمات فيما ذكرته الآية وهذا قد يكون من الشافعي أجراه مجرى التأويل “^(٦٠)

وبنظرة فاحصة في العبارة تجد أن الشافعي لم يذكر قوله هذا على أنه سبب نزول الآية وإنما هو تفسير كما بينه إمام الحرمين وعليه فالتمثيل لهذه الفائدة لا يعتد به لعدم صحة المثال ولعدم وجود مثال آخر عليه.

الآية قد وصفت ما عليه مجتمع قريش بشأن الذبائح ولا يوجد سبب خاص نزلت بشأنه.

وخلاصة القول إن هذه الفائدة المنسوبة إلى أسباب التنزيل دعوى ينقصها الدليل.

(٦) تخصيص الحكم بالسبب عند من يرى أن العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ ومعرفة أن سبب النزول غير خارج عن حكم الآية إذا ورد مخصصاً لها.

إن هاتين القضيتين ليس لهما علاقة بأسباب النزول بل هما تحتصان بأصول الفقه رغم ورودهما في كتب علوم القرآن.

كيفية الوصول إلى سبب النزول :

” لا طريق لمعرفة سبب النزول إلا النقل عن الصحابة الذين عاصروا الوحي والتنزيل ووقفوا على الأحوال والملابسات التي أحاطت بنزول الآيات وسمعوا من الرسول ما لم يسمعه غيرهم فعنهم وحدهم يؤخذ هذا العلم “^(٦١)

” وعلى هذا فإن روي سبب النزول عن صحابي فهو مقبول وإن لم يعزز برواية أخرى تقويه. وذلك لأن قول الصحابي فيما لا مجال للاجتهاد فيه حكمه حكم المرفوع إلى النبي ﷺ

^(٦٠) المراجع السابقة. أما إمام الحرمين فهو عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني ت: ٤٧٨هـ

^(٦١) غزوان ، البيان ، ص ٩٣.

لأنه يبعد كل البعد أن يكون الصحابي قد قال ذلك من تلقاء نفسه على حين أنه خبر لا مرد له إلا السماع والنقل أو المشاهدة والرؤية^(٢٧).

التعبيرات عن سبب النزول :

لقد اختلفت العبارات في التعبير عن سبب النزول :

(١) فتارة جاءت صريحة مثل " سبب نزول الآية كذا " وهذه العبارة قطعية الدلالة لا تحتمل غيرها.

(٢) وتارة لا يصرح بلفظ السبب ولكن يؤتى بفاء داخلية على مادة نزول القرآن عقب سرد حادثة. مثال ذلك ما أخرجه مسلم^(٢٨) عن جابر قال : " كانت اليهود تقول : من أتى امرأة من دبرها في قبلها جاء الولد أحول فأنزل الله ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لَأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة : ٢٢٣]. وهذه العبارة نص في السببية أيضاً.

(٣) وتارة يسأل الرسول فيوحى إليه ويحيب بها نزل عليه ولا يكون التعبير بلفظ سبب النزول ولكن السبب يفهم من المقام مثل ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء : ٨٥].

(٤) وتارة لا تأتي على هذه الحالات الثلاث بل يقال نزلت هذه الآية في كذا. وهذه تصلح لأن يراد بها ذكر سبب النزول وأن يراد بها تفسير. ولكن لا على معنى أنها جمعت للأمرين معاً في الموضع الواحد. ويتوقف فهم المراد منها على دليل يوضحه وسيل معرفة معنى الذي أراده الصحابي من هذه العبارة أن يُنظر إلى ما ذكر بعد كلمة " في " فإن كان المذكور بعدها معنى تشتمل عليه الآية يراد من المكلف تأديته أو الاعتاظ به فالمقصود بها التفسير وإن لم يكن كذلك بأن كان المذكور بعدها شخصاً أو حادثة كان المقصود بها ذكر سبب النزول^(٢٩).

(٢٧) الزرقاني، مذهب العرفان، ١/ ١١٤.

(٢٨) صحيح مسلم، بشرح الإمام النووي، مؤسسة مناهل العرفان، بيروت، كتاب النكاح، باب : جواز جماعة... رقم : ١٤٣٥.

(٢٩) غزalan، البيان، ص ١٠٣-١٠٤، بتصرف.

وقال ابن تيمية : ” وقولهم [نزلت هذه الآية في كذا] يراد به تارة أنه سبب النزول ويراد به تارة أن هذا داخل في الآية وإن لم يكن السبب كما تقول : عني بهذه الآية كذا“ .^(٣٠)

ومثاله ما أخرجه البخاري^(٣١) عن ابن عمر قال : أنزلت ” نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ “ في إتيان النساء في أدبارهن. وهذا استنباط من ابن عمر. فقد تقدم عن جابر التصريح بذكر سبب نزول الآية قريباً.

- أما إذا كان الاختلاف بين عبارتين أو عبارات كلها نص في السببية فيسمى بتعدد السبب.

تعدد السبب في الآية الواحدة وكيفية العمل فيه :

كثيراً ما يذكر المفسرون - كما قال السيوطي - لنزول الآية أسباباً متعددة وطريق الاعتماد في ذلك أن ينظر إلى العبارة الواقعة. ففي هذا المقام صور أربع.^(٣٢)

(١) أن تكون إحدى الروايتين صحيحة والأخرى ضعيفةً فالاعتماد على الصحيح. مثال ذلك ما أخرجه الشيخان عن جندب قال : اشتكى النبي ﷺ فلم يَقم ليلة أو ليلتين فأنته امرأة فقالت : ما أرى شيطانك إلا قد تركك فأنزل الله ﷻ وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ﷻ [الضحى : ١-٢].

وذكر السيوطي رواية أخرى وقال : وأخرج الطبراني وابن أبي شيبه عن حفص بن ميسرة عن أمه عن أمها - وكانت خادماً رسول الله ﷺ أن جرواً دخل بيت النبي فدخل تحت السرير فمكث النبي أربعة أيام لا ينزل عليه الوحي فقال : يا خولة ما حدث في بيت رسول الله ؟ جبريل لا يأتيني فقلت في نفسي لو هيأت البيت وكنته فأهويت بالمكنسة تحت السرير فأخرجت الجرو فجاء النبي ﷺ ترعد لحيته وكان إذا نزل عليه الوحي أخذته الرعدة. فأنزل الله ﷻ وَالضُّحَى “ إلى قوله ” فَتَرَضَى “.

(٣٠) ابن تيمية ، مقدمة في أصول التفسير ، ص ٤٨ .

(٣١) صحيح البخاري : التفسير / البقرة : باب ” نساؤكم حرث لكم “ رقم : ٤٥٢٦ .

(٣٢) السيوطي ، الإتقان ، ١ / ١٠١ وما بعدها .

وقال ابن حجر في شرح البخاري : ” قصة إبطاء جبريل بسبب الجرو مشهورة لكن كونها سبب نزول الآية غريب وفي إسناده من لا يعرف فالمعتمد ما في الصحيح “^(٣٣)

(٢) الصورة الثانية أن تكون كلتا الروایتين صحيحتين وإحادهما أرجح من الأخرى بوجه من وجوه الترجيح فتأخذ الأرجح وتترك الراجحة.

مثال ذلك ما أخرجه البخاري عن ابن مسعود قال : كنت أمشي مع النبي ﷺ بالمدينة وهو يتوكأ على عسيب فمرّ بنفر من اليهود فقال بعضهم لو سألتموه فقالوا حَدِّثْنَا عَنْ الرُّوحِ فَقَامَ سَاعَةً وَرَفَعَ رَأْسَهُ فَعَرَفَتْ أَنَّهُ يُوْحَى إِلَيْهِ حَتَّى صَعِدَ الْوَحْيُ ثُمَّ قَالَ ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء : ٨٥].^(٣٤)

وفي رواية الترمذي عن ابن عباس : قالت قريش لليهود أعطونا شيئاً نسأل هذا الرجل فقالوا : اسألوه عن الروح فسألوه فأنزل الله ” وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ “^(٣٥) . لقد رجح السيوطي^(٣٦) رواية البخاري وتبعه الزرقاني^(٣٧) وذكره غزلان^(٣٨) مع التنبيه على أن القاعدة العامة عند الجمهور أنه إذا تعارضت الأدلة لا يصار إلى الترجيح إلا إذا تعذر الجمع. ولكنه لم يذكر جمعاً بين الروایتين. وقالوا عن الرواية الثانية : فهذا يقتضي أنها نزلت بمكة والأول خلافه وقد رجّح بأن ما رواه البخاري أصح من غيره وبأن ابن مسعود كان حاضراً القصة.

ونحن نرى أنه لا داعي للترجيح بين الروایتين وليس بينهما تعارض. لأن رواية ابن مسعود لا تدل على أن الآية قد نزلت فعلاً. بل إنه مجرد ظنّ منه حيث أنه فهم من

(٣٣) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، دار الفكر للطباعة والنشر، ٨/ ٧١٠، وانظر، الإتيقان، ١٠٣/١.

(٣٤) الإسراء : ٨٥. والحديث في كتاب العلم، رقم : ١٢٥.

(٣٥) صحيح الترمذي، تحقيق أحمد شاكر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٨٧، أبواب تفسير القرآن، باب : من سورة بني إسرائيل، رقم : ٣١٤٠.

(٣٦) الإتيقان، ١٠٥/١.

(٣٧) مناهل العرفان، ١/ ١١٨.

(٣٨) البيان، ص ١١١.

انتظار النبي ﷺ أنه أوحى إليه. والحقيقة أن جبريل ﷺ ذكر الرسول بالآية النازلة في مكة بينما الرسول كان ينتظر نزول وحي جديد. وبهذا نخلص من الإشكال.

(٣) وإن كانا معا يحتاج بهما ولا رجحان لأحدهما لكن يمكن الجمع بينهما بأن كلا من السببين حصل ونزلت الآية عقب حصولهما معاً لتقارب زمניהما ولا مانع لهذا.

ومثاله ما أخرجه البخاري^(٣٤) من طريق عكرمة عن ابن عباس أن هلال بن أمية كذب امرأته عند النبي ﷺ بشريك بن سمحاء فقال النبي ﷺ: "البينة أو حد في ظهرك" فقال يا رسول الله إذا وجد أحدنا مع امرأته رجلاً ينطلق يلتمس البينة؟ فأنزل عليه ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ أَرْوَاجَهُمْ ...﴾ حتى بلغ ﴿... إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [النور: ٦-٩].

وأخرج الشيخان^(٣٥) عن سهل بن سعد أن عويمراً أتى عاصم بن عدي فقال أسأل رسول الله ﷺ أرايت رجلاً وجد مع امرأته رجلاً يقتله أئقتل به؟ أم كيف يصنع؟ فسأل عاصم رسول الله ﷺ فعاب المسائل فأخبر عاصم عويمراً فقال والله لآتين رسول الله ﷺ فلا سأله فأتاه فقال: "إنه قد أنزل فيك وفي صاحبك قرآن".

هاتان روايتان صحيحتان ولا مرجح لإحداهما على الأخرى ومن السهل أن نأخذ بكلتيهما لقرب زمانيهما على اعتبار أن أول من سأل هو هلال ثم قفاه عويمر قبل إجابته بواسطة عاصم مرة وب نفسه مرة أخرى فأنزل الله الآية إجابة للحادثين معاً.^(٣٦)

(٤) لقد ذكروا^(٣٧) صورة رابعة وهي إن لم يمكن الجمع بينهما لتباعد الزمان بين السببين أو لغير ذلك من القرائن حمل الأمر على تكرار النزول.

هذا ما ذكره الزركشي والسيوطي وغيرهما في مبحث أسباب النزول وستتابع هذه القضية فيما بعد محاولين الوصول إلى حقيقة الأمر.

^(٣٤) صحيح البخاري، التفسير / النور: رقم: ٤٧٤٧.

^(٣٥) صحيح البخاري: التفسير / النور: رقم: ٤٧٤٥، صحيح مسلم: كتاب اللعان رقم: ١٤٩٢.

^(٣٦) الزرقاني، مناهل العرفان، ١/ ١٢١.

^(٣٧) الزركشي، البرهان، ١/ ٥٤، السيوطي، الإتيان، ١/ ١٠٦، الزرقاني، مناهل العرفان، ١/ ١٢٠ وما بعدها.

وينبغي أن نبحث عن الأسباب التي دعت إلى القول بتعدد سبب النزول وقبل الخوض في هذه المسألة هناك قضية أخرى يجب أن نتعرض لها وهي عكس ما كنا بصددنا.

تعدد النازل والسبب الواحد :

المقصود منه : أن يكون أمر واحد سبباً للنزول آيتين أو آيات متعددة وقد يكون ذلك في أكثر من سورة.^(١٣)

وقال الزرقاني : ” لأنه لا ينافي الحكمة في إقناع الناس وهداية الخلق وبيان الحق عند الحاجة بل إنه قد يكون أبلغ في الإقناع وأظهر في البيان “.^(١٤)

هذا ما قالوه ولكن هذه المسألة كسابقتها تحتاج إلى تحقيق وتحير. ونقول إذا وردت الآيات في موضوع واحد وسورة واحدة فهذا أمر مقبول وجيد. لكن أن تأتي آيات في سور متعددة فنقول نزلت في سبب واحد فهذا أمر غير مقبول لأمر:

- (١) إن القرآن كتاب كلي يعطي كل قضية حجمها ولا يفصل الجزئيات.
- (٢) هذه القضية ينتج عنها إشكاليات كثيرة منها تناسب وتناسق الآيات في السياق مع السبب.

(٣) معظم هذه الروايات تحتاج إلى التحقيق من حيث الصحة وتباين الزمان. فبقينا أنه بعد تمحيص الروايات المستشهد بها في هذا الموضوع سيظهر لنا أن الأمثلة إما تتعارض مع السياق وإما غير صالحة للاستشهاد بها وإما ضعيفة أو غير ذلك من الأمور.

والآن لنختار مثالين نبحث في أولهما عن الصلاحية للاستشهاد به وفي الثاني من حيث السياق واتساق السبب معه :

- (أ) مثال السبب الواحد تنزل فيه آيتان ، مثلوا به :

^(١٣) السيوطي ، الإتيقان ، ١٠٨/١ ، الزرقاني ، مناهل العرفان ، ١٢١/١ ، غزلان ، البيان ، ص ١١٣.

^(١٤) مناهل العرفان ، ١٢١/١.

(١) ما أخرجه ابن جرير الطبري^(١٥) عن ابن عباس قال كان رسول الله ﷺ جالساً في ظل شجرة فقال: إنه سيأتيكم إنسان فينظر إليكم بعيني الشيطان فإذا جاء فلا تكلموه فلم يلبث أن طلع رجل أزرق "زرقة العين" فدعاه رسول الله فقال: علام تشتمني أنت وأصحابك؟ فانطلق الرجل فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما قالوا وما فعلوا حتى تجاوز عنهم فأنزل الله ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ...﴾ [التوبة: ٧٤].

(٢) ما أخرجه الحاكم^(١٦) - الحديث نفسه - وقال فأنزل الله ﴿يَوْمَ يَعْتَصِمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ...﴾ استحوذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿[المجادلة: ١٨-١٩].

أما الرواية الأولى فقد ذكرها الطبري تحت عنوان "قال بعضهم الذي نزلت فيه هذه الآية الجلّاس بن سويد بن صامت" ثم ذكر رأياً آخر وهو: أن الآية نزلت في عبد الله بن أبي بن سلول وقال: "الصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال: إن الله تعالى أخبر عن المنافقين أنهم يحلفون بالله كذباً على كلمة كفر تكلموا بها أنهم لم يقولوها فجائز أن يكون ذلك القول ما روى عن عروة أن الجلّاس قاله وجائز أن يكون قائله عبد الله بن أبي بن سلول".^(١٧)

إن الطبري - كما لاحظنا - لم يرتض هذه الرواية سبباً لنزول الآية وبين أن فيها اختلافاً.

أما رواية الحاكم فقد سكت عنها الذهبي^(١٨) ومن المعلوم أن كتاب المستدرک ليس من الكتب الملتزمة بالروايات الصحيحة. فقد ضعف العلماء كثيراً من رواياته. وهذا الحديث نفسه فيه سبّك بن حرب وقال عنه جرير: "صدوق وروايته عن عكرمة مضطربة وقد تغير بآخرة فكان ربما يلقي".^(١٩)

(١٥) الطبري، ابن جرير، جامع البيان في تفسير القرآن، تحقيق محمود شاكر، دار المعارف، مصر، ٣٦٣/١٤.

(١٦) الحاكم، محمد بن عبد الله، المستدرک، مكتبة ومطابع النصر الحديثة، الرياض، ٤٨٢/٢.

(١٧) جامع البيان في تفسير القرآن، ٣٦٣/١٤.

(١٨) المستدرک، ٤٨٢/٢.

(١٩) ابن حجر العسقلاني، تقريب التهذيب، دار الرشيد، ط ١، حلب، ١٩٨٦، ص ٢٥٥.

(ب) مثال السبب الواحد تنزل فيه أكثر من آيتين :

(١) أخرج الحاكم^(٥٠) عن أم سلمة (رضي الله عنها) أنها قالت : قلت يا رسول الله تذكر الرجال ولا تذكر النساء فأنزلت ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ ... ﴾ [الأحزاب : ٣٥]. وأنزلت ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى ... ﴾ [آل عمران : ١٣٥].

(٢) وأخرج الحاكم^(٥١) أيضاً أنها قالت تغزو الرجال ولا تغزو النساء وإنما لنا نصف الميراث فأنزل الله ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ ... ﴾ [النساء : ٣٢] وأنزل ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ ... ﴾ [الأحزاب : ٣٥].

(٣) وأخرج الحاكم^(٥٢) كذلك عن أم سلمة أنها قالت : يا رسول الله لا أسمع ذكر النساء في الهجرة بشيء فأنزل الله ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ ... ﴾ [آل عمران : ١٩٥]

ونلاحظ أن الروايات كلها مركزة على عدم ذكر النساء. والحقيقة أننا نعلم أن القرآن الكريم حين يذكر عبارة ما لا يفرق بين الرجال والنساء إلا إذا كان هناك قضية خاصة للنساء. ثم إن القرآن فيه ذكر للنساء وللرجال.

والروايات فضلاً عن اختلافها في الموضوع فإن السياق لا يدعم كون أية منها سبباً لنزول الآيات. والحديث في سورة النساء - قبل الآية وبعدها - جاء متناسقاً مع ما قبله وما بعده. والآية إرشاد للمؤمنين بعدم التمني الذي يبعدهم عن الحق.

أما من حيث الزمن فأيات آل عمران نزلت في أحد في السنة الثالثة الهجرية. وسورة النساء الأرجح أنها نزلت في السنة الرابعة. أما سورة الأحزاب فذكرت فيها قضية نساء الرسول وهي قضية متأخرة عن النساء.

وعلى هذا فلا يمكننا أن نقول بتعدد النزول مع السبب الواحد.

وخلاصة القول إن الروايات الواردة في هذه المسألة تحتاج إلى التمهيص والدراسة.

(٥٠) المستدرك، ٤١٦/٢.

(٥١) المستدرك، ٣٠٥/٢ و ٤١٦/٢.

(٥٢) المستدرك، ٣٠٠/٢.

الأسباب التي حملت إلى القول بتعدد أسباب النزول :

- (١) الاختلاف في فهم قول الصحابي "نزلت الآية في كذا".^(٢٣)
- (٢) الخطأ في نقل الراوي فيقول "فنزلت الآية" بدل القول "فتلا الآية" ومثاله ما أخرجه الترمذي وصححه^(٢٤) عن ابن عباس قال : مرّ يهودي بالنبي عليه الصلاة والسلام فقال : كيف تقول يا أبا القاسم إذا وضع الله السموات على ذه والأرض على ذه والماء على ذه والجبال على ذه وسائر الخلق على ذه فأنزل الله ﷻ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ... ﷻ [الزمر : ٦٧]. والحديث في البخاري بلفظ فتلا رسول الله ﷺ وهو الصواب فإن الآية مكية.^(٢٥)
- (٣) التشابه بين التفسير وأسباب النزول. قال الدهلوي : "إن الصحابة والتابعين كثيراً ما يقولون "نزلت الآية في كذا وكذا" وغرضهم من ذلك تصوير ما يصدق عليه الآية".^(٢٦)
- (٤) الثقة المفرطة بالعلماء السابقين. وهو من أهم الأسباب في هذه القضية. إذ تبع معظم المؤلفين ما كتبه الزركشي والسيوطي رحمهما الله. وهذا أدى إلى عدم تحري الدقة في النقل والركون إلى تكرار قوهم.

تكرار النزول :

قالوا - كما أشرنا إليه - إذا وردت أكثر من رواية في السببية ولم يمكن الجمع بينها لتباعد الزمان بينها أو لغير ذلك من القرائن. حمل الأمر على تكرار النزول تفخيماً وتعظيماً لشأن الآية أو السورة. وهو : نزول الآية أو الآيات أو السورة أكثر من مرة. وهذا يخالف ما يسمى بتعدد النزول الذي يراد به نزول الآيات المختلفة بسبب واحد كما ذكرناه.

إن هذه القضية تحتاج إلى البحث والتحري كذلك. فقد اتبع المؤلفون في هذه القضية - أيضاً - ما ذكره الزركشي رحمه الله في "البرهان" والسيوطي في "الإتقان" بدون

(٢٣) سيأتي التفصيل في تكرار النزول.

(٢٤) صحيح الترمذي ، التفسير : باب من سورة الزمر ، رقم : ٣٢٤٠.

(٢٥) السيوطي ، الإتقان ، ١/ ١٠٧. والحديث أخرجه البخاري في التفسير : الزمر ، رقم ٤٥٣٣

ونصه : "فضحك النبي ﷺ ثم قرأ الآية".

(٢٦) الإتقان ، ١/ ١٠٧.

تحري الدقة والنظر إلى سلامة القول. وهذا نص السيوطي : " والحال السادس أن لا يمكن ذلك [الجمع بين الروايات أو الترجيح] فيحمل على تعدد النزول وتكرره " (٥٧) ومثاله ما أخرجه الشيخان (٥٨) عن المسيب قال لما حضر أبا طالب الوفاة دخل عليه رسول الله ﷺ وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية فقال : أي عم قل لا إله إلا الله أحاج بها لك عند الله فقال أبو جهل وعبد الله يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب فلم يزا إلا يكلمانه حتى قال هو على ملة عبد المطلب فقال النبي ﷺ لأستغفرن لك ما لم أنه عنه فنزلت ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ ... ﴾ [التوبة : ١١٣]. الآية من سورة التوبة "براءة".

وأخرج الترمذي - وحسنه (٥٩) - عن علي قال : سمعت رجلا يستغفر لأبويه وهما مشركان فقلت : تستغفر لأبويك وهما مشركان ؟ فقال : استغفر إبراهيم لأبيه وهو مشرك. فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فنزلت. الآية.

وأخرج الحاكم (٦٠) عن ابن مسعود قال : خرج النبي ﷺ يوماً إلى المقابر فجلس إلى قبر منها فناجاه طويلاً ثم بكى فقال : " إن القبر الذي جلست عنده قبر أُمي وإني استأذنت ربي في الدعاء لها فلم يأذن لي فأنزل علي ما كان للنبي ... الخ ".

وقال السيوطي : " فنجمع بين هذه الأحاديث بتعدد النزول " (٦١).

هذه هي الأمثلة التي ذكرها السيوطي مثلاً على تكرار النزول وتبعه الذين جاءوا بعده.

إن هذا القول جاء متأخراً وعلى هذا قضية تكرار النزول لم تكن من القرون الأولى ولو كانت في الجيل الأول لوصل إلينا ولكنه لم يصل شيء منه وحتى الأئمة الذين كتبوا في أسباب النزول لم يذكروا ذلك.

قيل إن الحكمة من تكرار النزول هي زيادة في التفخيم والتركيز. ولو كان الأمر كذلك لكانت آية الكرسي - وهي أعظم آية - أولى من غيرها للتكرار ولكنه لم يحدث هذا.

(٥٧) الإتيان، ١٠٦/١.

(٥٨) صحيح البخاري، التفسير/ التوبة، رقم : ٤٦٧٥.

(٥٩) صحيح الترمذي، التفسير/ التوبة، رقم : ٤٦٧٥.

(٦٠) المستدرک، ٣٣٦/٢.

(٦١) انظر، الإتيان، ١٠٦/١-١٠٧.

هذه ناحية ، أما الثانية فإن أبا طالب توفي في مكة قبل الهجرة اتفاقاً. وسورة التوبة نزلت في العام التاسع بعد الهجرة. فلو قلنا إن الآية نزلت في مكة فأين وضعت هذه الآية حتى نزلت سورة التوبة ؟!

ومن خلال السياق يفهم أن الآية عامة ونزلت في سياق ترك الاستغفار للمشركين ويمكن أن تشمل أبا طالب وغيره.

المثال الثاني : قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴾ [النحل : ١٢٦] وهي مكية. وذكر السيوطي^(١١) في سبب نزولها روايتين :

(١) أخرج البيهقي والبخاري عن أبي هريرة أن النبي ﷺ وقف على حمزة حين استشهد وقد مثل به فقال : لأمثلن بسبعين منهم مكانك فنزل جبريل - والنبي واقف - بخواتيم سورة النحل ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ... ﴾ [النحل : ١٢٦] إلى آخر السورة.

(٢) وأخرج الترمذي^(١٢) والحاكم^(١٣) عن أبي ابن كعب قال لما كان يوم أحد أصيب من الأنصار أربعة وستون ومن المهاجرين ستة منهم حمزة فمثلوا بهم فقالت الأنصار : " لئن أصبنا منهم يوماً مثل لثريين^(١٤) عليهم " فلما كان يوم فتح مكة أنزل الله "وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا ... الخ".

وقال السيوطي : " فظاھر تأخير نزولها إلى الفتح وفي الحديث الذي قبله نزولها بأحد. قال ابن الحصار : فيجمع بأنها نزلت أولاً بمكة ثم ثانياً بأحد ثم ثالثاً يوم الفتح تذكيراً من الله لعباده " .^(١٥)

ونبه السيوطي بعد هذه الرواية وقال : قد يكون في إحدى القصتين " فتلاً " فيهم الراوي فيقول " فنزل " .^(١٦)

(١١) الإتيان ، ١٠٧ / ١ .

(١٢) صحيح الترمذي ، أبواب التفسير / سورة النحل . رقم : ٣١٢٩ .

(١٣) المستدرک ، ٣٥٩ / ٢ .

(١٤) لنزیدن ونضاعفن فی التمثیل بقتلاهم .

(١٥) الإتيان ، ١٠٧ / ١ .

(١٦) المرجع نفسه .

أما الرواية الأولى ففيها صالح بن بشير المزني وهو ضعيف. قال الهيثمي في جمع الزوائد بعد ذكر الحديث : ” ورواه البزار والطبراني وفيه صالح بن بشير المزني وهو ضعيف “^(٦٨)

أما الثانية فيظهر منها أن الآية نزلت بعيداً عما سموه سبباً لنزولها في فتح مكة والسبب غزوة أحد هذا يخالف ما قررناه في معنى سبب النزول. فكل ما ذكر إنها هو تفسير للآية. فالآية مكية وذكرها الرسول في أحد وغيرها.

المثال الثالث : أما قولهم ” قد تنزل سورة للتفخيم “ فمردود كذلك ومثلوا بسورة الفاتحة أنها نزلت مرة في مكة ومرة في المدينة.

والصحيح أنها نزلت مرة واحدة بمكة لأن ” تحصيل ما هو حاصل لا فائدة فيه.. ويلزم منه أن يكون كل ما نزل بمكة نزل بالمدينة مرة أخرى.. ولعلمهم يعنون بها أن جبريل نزل حين حوت القبلة فأخبر الرسول أن الفاتحة ركن في الصلاة كما كانت بمكة فظنوا ذلك نزولاً لها مرة أخرى أو أقرأها قراءةً أخرى لم يقرأها له بمكة فظنوا ذلك نزولاً “^(٦٩)

لقد نسب طاهر الجزائري هذا القول إلى بعض العلماء قائلاً : ” وقد أنكر بعضهم كون الشيء من القرآن تكرر نزوله. وعلمه بأن تحصيل ما هو حاصل لا فائدة فيه وبأنه يلزم منه أن يكون كل ما نزل بمكة نزل بالمدينة مرة أخرى فإن جبريل كان يعارضه القرآن كل سنة وبأنه لا معنى للإنزال إلا أن جبريل كان ينزل على رسول الله ﷺ بقرآن لم يكن نزل به من قبل فيقرئه إياه “^(٧٠)

الأسباب التي دعت إلى القول بتكرار النزول :

- (١) تعدد الروايات في السببية حملت إلى القول بأن الآية نزلت عدة مرات كما شرحناه.
- (٢) اختلاف الصحابة في عبارة ” نزلت في كذا “ فمنهم من يستعملها لمحض قصة كانت في زمنه ﷺ وهم يقولون نزلت في كذا ولا يلزم انطباق جميع القيود. ومنهم من يستعملها فيما انطبقت عليه الآية.

(٦٨) الهيثمي ، على بن أبي بكر ، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، مكتبة القدس ، القاهرة ، ١٣٥٣ هـ ، ٦ / ١١٩ .

(٦٩) الإتيان ، ١ / ١١٤ - ١١٥ نقلاً عن كتاب (الكفيل بمعاني التنزيل).

(٧٠) طاهر الجزائري ، التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن ، مكتبة مطبوعات الاسلامية ، ط ٣ ، حلب ، ص ٥٦

إن الصحابة والتابعين كثيراً ما كانوا يقولون "نزلت في كذا" وغرضهم من ذلك تصوير ما يصدق عليه الآية. وذكر بعض الحوادث التي تشملها بعمومها سواء تقدمت القصة أو تأخرت وسواء كان ذلك إسرائيلياً أو جاهلياً أو إسلامياً وسواء استوعبت جميع قيود الآية أو بعضها.^(٧١)

(٣) "وقد يذكرون حادثة تحققت في تلك الأيام المباركة واستنبط النبي حكماً من آية قرأها في ذلك الباب فتراهم يقولون بعد ذلك أن الآية "نزلت في كذا" وربما قالوا "فأنزل الله قوله كذا" فكأنه إشارة إلى أنه استنبطه عليه السلام." ^(٧٢)

(٤) "والمحدثون يذكرون في ذيل آيات القرآن كثيراً من الأشياء التي ليست من قسم سبب النزول في الحقيقة مثل استشهاد الصحابة في مناظراتهم أو تمثيلهم بآية ومثل تلاوته عليه السلام الآية للاستشهاد بها في كلامه الشريف ومثل رواية حديث وافق الآية في أصل العرض. فمن استحضر هذه النكتة تمكن من حل اختلاف أسباب النزول بأدنى عناية." ^(٧٣)

^(٧١) الباقوري، أحمد حسن، مع القرآن، المطبعة النموذجية، ١٩٧٠، ص ١٠٦-١٠٧، نقلاً

عن الدهلوي.

^(٧٢) المرجع نفسه.

^(٧٣) المرجع نفسه.

نتائج البحث :

وفي نهاية هذا البحث المتواضع أرغب في تسجيل النتائج التي توصلت إليها من خلال تحرير النزاع في المسائل وبيان وجه الصواب فيها. وأطرح أطراً للاعتداد عليها في هذا الموضوع. ومن هذه النتائج ما يلي :

(١) رأينا أنه لا يجوز أخذ أقوال العلماء السابقين مسلمة في الموضوع وقد ثبت أنهم جعلوا سبب نزول وقع بالمدينة لآية مكية أو بالعكس وهذا خطأ.

(٢) إن موضوع أسباب النزول لم يخل من الهنات فقد رأينا جانباً منها يمثل في تعدد الروايات وآخر في القول بتكرار نزول القرآن تبعاً لتعدد هذه الروايات وهذا يقتضي من الباحث في هذا الموضوع أن يتحرى الدقة في روايات الأسباب بعد أن تنهياً له سبل الترجيح والقبول.

(٣) إن القول بتعدد الأسباب غير دقيق ولا بد من الترجيح للروايات.

(٤) إن القول بتعدد النازل والسبب واحد ينقصه الدليل.

(٥) إن القول بتكرار نزول القرآن أو آيات أو سور لا سبيل للأخذ به فهو قول عار عن الدليل فلا يجوز الأخذ به وهو مبني على الاحتمال أو على تعدد روايات غير ثابتة أو التي يمكن ترجيح إحداها على غيرها.

وبعد التوصل إلى هذه النتائج في هذا الموضوع يتبين لنا أنه لا بد من التوصيات الآتية حتى تُعد الرواية أنها سبب النزول :

(١) تحقيق صحة الرواية.

(٢) تزامن نزول الآية مع وقوع الحدث أو السؤال.

(٣) ضرورة تناسق الرواية مع منطوق ومفهوم النص.

(٤) ضرورة تناسب الرواية مع سياق الآية أو الآيات في السورة.

(٥) أن لا تعارض الرواية نصاً أقوى منها سواء أكان قرآناً أو حديثاً أو رواية صحيحة.

وأخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

مراجع البحث :

- (١) ابن تيمية ، أحمد بن عبد الحلیم ، مقدمة في أصول التفسير ، تحقيق : د. عدنان زررور ، دار القرآن الكريم ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٧١م.
- (٢) ابن حجر العسقلاني ، تقريب التهذيب ، دار الرشيد ، ط ١ ، ١٩٨٦م ، حلب.
- (٣) ابن حجر العسقلاني ، فتح الباري ، دار الفكر للطباعة والنشر.
- (٤) ابن عاشور ، محمد طاهر ، التحرير والتنوير ، الدار التونسية للنشر ، ١٩٨٤م.
- (٥) أحمد بن فارس ، معجم مقاييس اللغة ، دار الكتب العلمية ، إيران.
- (٦) أحمد حسن الباقوري ، مع القرآن ، المطبعة النموذجية ، ١٩٧٠م.
- (٧) البخاري ، صحيح البخاري ، ضمن فتح الباري.
- (٨) الترمذي ، صحيح الترمذي ، تحقيق : أحمد شاكر ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٨٧م.
- (٩) الحاكم ، محمد بن عبد الله ، المستدرک ، مكتبة ومطابع النصر الحديثة ، الرياض.
- (١٠) الذهبي ، محمد حسين ، التفسير والمفسرون ، ط ٢ ، ١٩٧٦م.
- (١١) الزرقاني ، محمد عبد العظيم ، مناهل العرفان في علوم القرآن ، دار الفكر ، ١٩٨٨م.
- (١٢) الزركشي ، بدر الدين ، البرهان في علوم القرآن ، دار الفكر ، ط ١ ، ١٩٨٨م.
- (١٣) السيوطي ، جلال الدين ، الإتقان في علوم القرآن ، تحقيق : د. مصطفى ديب البغا ، دار ابن كثير ، ط ١ ، ١٩٨٧م.
- (١٤) الشاطبي ، إبراهيم بن موسى ، الموافقات في أصول الأحكام ، تحقيق : محي الدين عبد الحميد ، مكتبة محمد علي صبيح وأولاده ، القاهرة ، ١٩٦٩م.
- (١٥) صحيح مسلم ، بشرح الإمام النووي ، مؤسسة مناهل العرفان ، بيروت.
- (١٦) طاهر الجزائري ، التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن ، مكتبة المطبوعات الإسلامية - حلب ، ط ٣.
- (١٧) الطبري ، ابن جرير ، جامع البيان في تفسير القرآن ، تحقيق : محمود شاكر ، دار المعارف ، مصر.

- (١٨) عبد الرحيم أبو علبة ، أسباب نزول القرآن ، رسالة ماجستير ، الجامعة الأردنية ، ١٩٧٩م.
- (١٩) غزلان ، عبد الوهاب ، البيان في مباحث من علوم القرآن ، مطبعة دار التأليف.
- (٢٠) الفيروزآبادي ، محمد بن محمد يعقوب ، القاموس المحيط ، مؤسسة الرسالة ط ٢ ، ١٩٨٧م.
- (٢١) الواحدي ، علي بن أحمد ، أسباب النزول ، تحقيق: سيد أحمد صقر ، طبعة دارالقبلة ، جدة ، ط ٢ ، ١٩٨٤م.
- (٢٢) الهيثمي ، علي بن أبي بكر ، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، مكتبة القدس ، القاهرة ، ١٣٥٣هـ.